

غليان في الجيش وارتياح في القصر

كيف ينوى أن يكون رئيساً؟، دار هذا السؤال كثيراً في بالي، وإن لم تتح لي الظروف أن ألقيه على مسامع الرئيس المنتخب محمد مرسي، وانشغلت عن سؤالى بمراقبة طريقة جواب الرئيس على أسئلة رؤساء التحرير في لقاء جرى بقصر الرئاسة، كانت الأسئلة في غالبها تعامل مرسي كعضو في جماعة الإخوان المسلمين، وتكاد تنكر عليه وجوده كرئيس في القصر الجمهوري، وكان مرسي بسيطاً ودوداً و«عشرياً» بامتياز، وإن كان جوابه يتوه دائماً في تفاصيل مما لا لزوم لها، أو يضيع في أكليشيهات عامة، ودونها حس ولا خبر بذاته، فالرئيس لم يبدأ الرئاسة بعد، فقد ذهبنا كضيوف على الرئيس، ووجدنا الرئيس نفسه يعامل كضيف في القصر الجمهوري (!).

ربما يكون الرئيس مرسي قد نجح في تصدير صورة بذاتها، وتسويقها بعناية للمراقبين والجمهور، بدا فيها رجلاً بسيطاً جداً، لا يميل إلى تكبر ولا غرور ولا استعلاء، وهو كذلك بالفعل، أعنى أنه لا يمثل علينا، بل يمثل نفسه القريبة من الروح البدوية الصرفة، وقد جاء الرجل باختيار الناس، وفي ظروف اضطرار لا تتيح فسحة من اختيار، وكان مرسي ضرورياً، - فقط - لتجنب عار اختيار شفيق، وهذا هو النصر الوحيد ربما في القصة كلها إلى الآن، فلم يكن اختيار مرسي لمزايا ظاهرة فيه، بل لتجنب رزايا مؤكدة في حالة شفيق عنوان عصابة مبارك، وربما كانت هذه النقطة بالذات هي موضع اختبار مرسي، فمصر كلها تنتظر ما يفعل، ولا نريد أن نستبق الحوادث، ولا أن نصادر على المطلوب، ولا أن نتوقف عند تصرفاته الأولى، وبعضها بدا في موضعه تماماً، وكذهابه إلى ميدان التحرير، وأدائه القسم الدستوري معنوياً في مهد الثورة، وقوله للناس -

عن حق - «أنتم مصدر السلطة»، وأن من «يحتّمى بغيركم يخسر»، وهذا كله حق وبديهي تماما، لكنه ليس موضع السؤال ولا الاختبار الأصلي، ولا يفصح عن قدرته - بعد نيته - على تحمل أعباء رئاسة حقيقية بصلاحيات كاملة، واتخاذ قرارات ناجزة فيها، وفي ظروف يعلمها الكل، وتتجاوز المعاني الاحتفالية إلى المواقف الجدية، فقد انتظر الناس - وعندهم حق - موقف مرسى من الإعلان الدستوري المكمل «المكبّل»، والذي يعطى المجلس العسكري سلطة فوق سلطة الرئيس نفسه، وصمت مرسى لوقت، وربما كان ينتظر أمر قيادة الإخوان، ومساوماتها في الكواليس مع المجلس العسكري، وكانت النتيجة على ما تعلم، فقد خضع الرئيس مرسى لشرط أداء اليمين أمام المحكمة الدستورية العليا، ونفذ الشرط الأول في الإعلان الذي أصدره المجلس العسكري عشية فوز مرسي، وهو ما قد يوحي بأن بساطة الرجل قد تعادل العجز وقلة الحيلة، وهذه حقيقة مفزعة لا تخفيها الهتافات ضد حكم العسكر في استقبال مرسى بميدان التحرير، ولا الاحتفالات التي جرى تنظيمها في القاعة الكبرى بجامعة القاهرة، ولا لقاءات مرسى المتواترة مع جماعات وطوائف في قصر الرئاسة، ولا الجماعية السياسية في مؤسسة الرئاسة بنوابها ومستشاريها أي كانت الأسماء والصفات، ولا الحكومة المنتظرة أيا كان اسم رئيس الوزراء فيها، فهذه كلها تصرفات قد تضيف إلى حساب النوايا والمعنويات، لكنها لا تفيد في جواب على سؤال الرئاسة الفعلية لمن؟ وهل هي للمشير طنطاوي أم لمرسي؟، وهل نحن بصدد شراكة ملتبسة أم مواجهة صريحة؟، وماذا يعنى اسم مرسى في القصة كلها؟.

وقد يكون صحيحا أن مرسى رجل متواضع، والتواضع فضيلة في حساب الأخلاق الفردية، لكنه - باليقين - رذيلة في حساب القدرات، وقد لا يكون خضوع مرسى لشرط أداء اليمين وموضعه نهاية الدنيا، لكنه يبقى إشارة خطيرة لما قد يأتي، فهذه هي الخطوة الأولى ربما في التسليم بالإعلان الدستوري

ومقتضياته، والتي لا تبدو موقوتة بالمدى الافتراضى المتبقى حتى ساعة الاستفتاء على الدستور الجديد، والتي يقدرها الإعلان بثلاثة شهور قد تزيد إلى أربعة، فالإعلان نفسه يفتح أقواس الزمن إلى مدى مفتوح، والقصد الجوهري من الإعلان أن تكون قواعده دائمة، وأن يجرى تضمينها فى صلب الدستور الجديد، وهو ما يعنى بقاء سلطة المجلس العسكرى فوق سلطة الرئاسة، والنزول بمقام الرئيس إلى درجة رئيس وزراء مكلف ضمناً من المجلس العسكرى ذاته، وعلى طريقة كمال الجنزورى رئيس الوزراء المنتهية ولايته، والذي قيل: إن المجلس العسكرى أعطاه سلطات الرئيس التنفيذية، وهو ما يقال الآن علناً على لسان المتحدثين باسم المجلس العسكرى، والتي جهدت فى دفع تهم استيلاء المجلس العسكرى على السلطة بعد انتخاب الرئيس، وقالت بوضوح إن مرسى لديه «السلطة التنفيذية كاملة»، وهى ذات الكلمات والحروف التى سيقى فى وصف مهمة الجنزورى، والمعنى لا يخفى، وهو أن المجلس العسكرى يحتفظ لنفسه بسلطة التقرير، وأن الرئيس المنتخب قد تركت له «سلطة التنفيذ»، وهو ما يعنى بوضوح أكثر أن الرئيس مرسى فى وضع الموظف رفيع المقام، وحتى لا نقول فى وضع السكرتارية التنفيذية، وهنا جوهر الأزمة، وأصل الاختبار الذى وضع فيه مرسى، وانتظار طريقته الفعلية فى التصرف الذاتى، فقد انتخبه الناس اضطراراً، ولم ينتخبوا جماعته الإخوانية لا اضطراراً ولا اختياراً، وهو يقول: إنه رئيس لكل المصريين، ولا بأس بالعبرة، فهى صحيحة جداً فى وصف المهمة، وتتطلب منه أن يبدى قدراته واختياراته الشخصية، فالرجل فى امتحان التاريخ، وعند الامتحان يكرم المرء أو يهان، ونحن نتطلع إلى كراماته، وإلى رؤية مقدرته على الفكاهة من أسر مساومات القيادة الإخوانية، والتصرف كرئيس مدنى منتخب، وقادر على مواجهة تغول الجنرالات، وقيادة معركة حقيقية لاسترداد السلطة، لا أن يكتفوا بأخذ توقيعهم على ما يريدون، وإملاء القرارات الكبرى عليه، فالرجل فى وضع بالغ الحرج، ويبدو كرئيس افتراضى، رئيس تحت وصاية مثلثة الأطراف، وصاية حزب

الإخوان الذي يحتفظ بعضويته، ووصاية الأمريكيين على سلطة الحكم عمومًا في مصر، ثم وصاية المجلس العسكري على سلطته بالذات، وإلى جوار المجلس العسكري، وبالقرب منه، سلطات خفية أكثر تربصًا بمرسي، بينها وصاية جهاز سيادي مرموق، لا يتخفى بالعداء الصريح الطافح لمرسى وجماعته، وناصر شفيق حتى النهاية، وكان وراء نشر إشاعات عن فوز شفيق في صحف وتلفزيونات، وإبلاغها حتى لدوائر أجنبية ودولية، وفي سياق من الضيق الظاهر بالمشير طنطاوى وجماعته في المجلس العسكري، والمسؤول - في رأى الجهاز إياه - عن السماح بفوز مرسي، وربما يبدو ضيق الجهاز السيادي ممتدًا إلى جنرالات في المجلس العسكري نفسه، وإلى أوساط ضباط الجيش عمومًا، فثمة غليان مكتوم وظاهر في الجيش، تواترت مظاهره وأماراته، وثمة تحريض على صدام مستعجل، يستخف بمرسي، ويفتح دفاتر جماعة الإخوان، ويريد أن يقطع الطريق على الحكم المدني بدعوى تصفية الحساب مع الإخوان، وفي حادثة ذات مغزى، وخلال لقاء قائد كبير بمئات من ضباطه، بدا فيها مدافعًا عن سياسة المشير التي تتجنب تصعيد الصدام مع الإخوان، وتساءل القائد مستطردًا: «هو فيه حد عايز صدام»، وكانت المفاجأة أن المئات رفعوا أيديهم قائلين: نحن نريد الصدام!.

نعم، نحن في لحظة خطر، ومرسى في قلبها، فثمة غليان في الجيش، وثمة تربص في أجهزة الدولة العميقة، وثمة ارتباب في القصر الجمهورى مع قدوم ساكنه الجديد.

وقد بدا مرسى متحدثًا بتصرفاته الرمزية في ميدان التحرير، وعازمًا على خوض معركة، ومحتميًا بشرعية اختيار الناس، ومصمما على انتزاع صلاحيات الرئاسة، بينما بدأت الحرب في الكواليس، وفي سياق ذاهب لواحد من انقلابين في ذروة الدراما، إما انقلاب مرسى لصالح مصر لا لصالح جماعة الإخوان وحدها، أو انقلاب الجنرالات على سيادة الرئيس.

"صوت الأمة" في ٢ من يوليو ٢٠١٢